بسم الله الرحمن الرحيم

مذهب السَلَف القويم فى تحقيق مسألة كلام الله الكريم

قال الإمام أبو الحسن بن عروة رحمه الله تعالى فى الكواكب [١] :

نُقِلَ من سؤال قُدِّم من بلاد « كيلان » فى مسألة القرآن إلى دمشق فى سنة أربع وسبعمائة من جهة سلطان تلك البلاد على يد قاضيها ، لأجل معرفة الحق من الباطل عندما كثر عندهم الاختلاف والاضطراب ، ورغب كل من الفريقين فى قبول كلام شيخ الإسلام أبى العباس أحمد بن تيمية فى هذا الباب ، فأملاه شيخ الإسلام فى المجلس ، وكتبه أحمد بن محمد بن مرى الشافعى بخط جيد قوى . ثم إن كاتب هذه الأوراق اطلع على هذه الفتوى يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثمانمائة فاخترتُ لنفسى منها مواضع نقلتها فى هذه الأوراق إذ الجواب جواب طويل جداً .

« صورة السؤال »

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضى الله عنهم فى قوم يقولون : إن كلام الناس وغيرهم قديم ، سواء أكان الكلام [٢] صدقاً أو كذباً ، فُحشاً أو غير فُحش ، نظماً أو نثراً ، ولا فرق بين كلام الله عَزَّ وجَلَّ وكلامهم فى القِدم إلا من جهة الثواب .

وقال قوم منهم – بل أكثرهم : أصوات الحمير والكلاب كذلك [٣] لما قُرِىء

(١) نقل من الجزء العشرين من « الكواكب » المودع فى خزانة المكتبة العمومية بدمشق فى المدرسة الظاهرية .

(٢) وُجِدَ فى الأصل هنا لفظة : « كلام » وهى زائدة ، كما أشار إليه فى حاشية نسختنا .

(٣) لعل الأصل : « ولما » .

عليهم ما نُقِلَ عن الإمام أحمد رداً على قولهم تأوّلوا ذلك القول وقالوا : إن أحمد إنما قال ذلك خوفاً من الناس ، فهل هم مصيبون أو مخطئون ؟ فإذا كانوا مخطئين فهل على ولى الأمر وفقه الله ردعهم وزجرهم عن ذلك أم لا ؟ وإذا وجب زجرهم فهل يكفرون إن أصرُّوا أم لا ؟ وهل الذى نُقِلَ عن الإمام أحمد حق ، أو هو كما يزعمون ؟ ... أفتونا مأجورين .

*

● كلام البَشر مخلوق وما يقرأونه من القرآن غير مخلوق :

أجاب الإمام العلاّمة شيخ الإسلام قامع البِدع ومُظهر الحق للخلق ، أبو العباس أحمد بن تيمية :

الحمد لله .. بل هؤلاء مخطئون فى ذلك خطأً محرماً فاحشاً بإجماع المسلمين ، وقد قالوا منكَراً من القول وزوراً ، بل كُفراً وضلالاً ومحالاً ، ويجب نهيهم عن هذا القول الفاحش ، ويجب على ولاة الأمور عقوبة مَن لم ينته منهم عن ذلك جزاءً بما كسب نكالاً من الله . فإن هذا القول مخالف للعقل والنقل والدين ، مناقص للكتاب والسنّة وإجماع المؤمنين . وهى بدعة شنيعة لم يقلها قط أحد من علماء المسلمين ، لا من علماء السنّة ولا من علماء البدعة ، ولا يقولها عاقل يفهم ما يقول ، ولا يُحتاج فى مثل هذا الكلام الذى فساده معلوم ببداهة العقل أن يُحتج له بنقل عن إمام من الأئمة ، إلا من جهة أن رده وإنكاره منقول عن الأئمة ، وأن قائله مخالف للأمة مبتدع فى الدين ، ولتزول بذلك شُبهة مَن يتوهم أن قولهم من لوازم قول أحد من السَلَف ، وليُعلم أنهم مخالفون لمذاهب الأئمة المقتدَى بهم ، بل قول الأئمة مناقض لقولهم ، فإن الأئمة كلهم نصوا على أن كلام الآدميين مخلوق ، بل نص أحمد على أن أفعال العباد مخلوقة عموماً وعلى كلام الآدميين خصوصاً ، لم يمتنعوا عن هذا الإطلاق لأجل الشُبهة التى عرضت لمثل هؤلاء المبتدعة .

● من البدعة أن يُقال « لفظى بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق »:

ثم ساق الشيخ كلاماً طويلاً إلى أن قال : « ومن المشهور فى كتاب « صريح السُنَّة » لمحمد بن جرير الطبرى - وهو متواتر عنه - لما ذكر الكلام فى أبواب السُنَّة قال : وأما القول فى ألفاظ العباد بالقرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابى مضى ، ولا عن تابعى قفا ، إلا عمن فى قوله الشفا والغنى ، وفى إتباعه الرُشد والهُدَى ، ومَن قام مقام الأئمة الأول : أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، فإن أبا إسماعيل الترمذى حدثنى قال : سمعتُ أبا عبد الله يقول : اللفظية جهمية . قال ابن جرير : سمعتُ جماعة من أصحابنا لا أحفظ أسماءهم يحكون عنه أنه كان يقول : مَن قال : لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ، ومَن قال : غير مخلوق فهو مبتدع . قال ابن جرير : القول فى ذلك عندنا لا يجوز أن يقول أحد غير قوله ، إذ لم يكن إمام قائم به سواه ، وفيه كفاية لكل متبع ، وقناعة لكل مقتنع ، وهو الإمام المتبع .

وقال صالح بن الإمام أحمد : بلغ أبى أن أبا طالب يحكى عن أبى أنه يقول : لفظى بالقرآن غير مخلوق ، فقال ، ابعث إلى أبى طالب ، فوجهتُ إليه فجاء فقال له أبى : أنا قلت لك لفظى بالقرآن غير مخلوق ؟ وغضب أبى وجعل يرتعد ، فقال له : قرأتُ عليك : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) فقلتَ لى : هذا ليس بمخلوق ، فقال له : فلِمَ حكيتَ عنى أنى قلت لفظى بالقرآن غير مخلوق ؟ وبلغنى أنك وضعتَ ذلك فى كتابك وكتبت به إلى قوم ، فإن كان فى كتابك فامحه أشد المحو ، واكتب الى القوم الذين كتبتَ إليهم أنى لم أقل هذا ، وغضب وقال له : تحكى عنى ما لم أقل ؟ فجعل فوزان يعتذر إليه (٢) وانصرف من عنده وهو مرعوب ، فعاد أبو طالب فذكر أنه حكى ذلك من كتابه

---

(١) الإخلاص : ١

(٢) كذا بالأصل .... وليحرر .

وكتب إلى أولئك القوم يخبر أنه وهم على أبى عبد الله فى الحكاية عنه . قال أبو عبد الله : القرآن حيث تصرف غير مخلوق .

وقال عبد الوهاب الوراق : مَن قال لفظى بالقرآن غير مخلوق فإنه يُهجر ولا يُكلّم ويُحذر منه ، وذكر الخلاّل فى كتاب « القراءة » عن إسحاق بن إبراهيم قال : قال أبو عبد الله - يعنى أحمد بن حنبل - يوماً ، وكنت سألته عن قوله (١) : « مَن لم يتغن بالقرآن » قال : هو الرجل يرفع صوته به ، فهذا معناه إذا رفع صوته فقد تَغنّى به ، وعن منصور وصالح أنه قال لابيه : يرفع صوته بالقرآن بالليل ؟ فقال : نعم إن شاء رفع ، ثم ذكر حديث أم هانئ : « كنتُ أسمع قراءة النبى ﷺ وأنا على عرشى من الليل » ، وقال الأثرم : سألتُ أبا عبد الله عن القراءة بالألحان فقال : كل شىء محدَث فإنه لا يعجبنى إلا أن يكون صوت رجل لا يتكلفه .

• فضل أحمد على سائر أئمة السُنَّة ومكانة أهل الحديث من علماء الأمة :

قال : وأما قول القائل : « إنَّ أحمد قال ذلك خوفاً من الناس » فبطلان هذا القول يعلمه كل عاقل بلغه شىء من أخبار أحمد ، وقائل هذا هو إلى العقوبة البليغة أحوج منه إلى جوابه لافترائه على الأئمة ، فإن الإمام أحمد صار مثلاً سائراً يُضرب به المثل فى المحنة والصبر على الحق ، فإنه لم يكن يأخذه فى الله لومة لائم ، حتى صارت الإمامة مقرونة باسمه فى لسان كل أحد فيقال : قال الامام أحمد ، وهذا مذهب الإمام أحمد لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢) فإنه أَعطِىَ من

---

(١) يعنى قول النبى ﷺ وهو فى سُنَن أبى داود بلفظ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » .

(٢) السجدة : ٢٤

الصبر واليقين ، ما نال به الإمامة في الدين ، وقد تداوله ثلاثة خلفاء يُسلِّطون عليه من شرق الأرض إلى غربها ومعهم من العلماء المتكلمين والقضاة والوزراء والسعاة والأمراء والولاة ما لا يحصيه إلا الله ، فبعضهم تَسلَّط عليه بالحبس ، وبعضهم بالتهديد الشديد ، وبعضهم يعده بالقتل ، وبغيره من الرعب ، وبعضهم بالترغيب في الرياسة والمال ، وبعضهم بالنفي والتشريد من وطنه ، وقد خذله في ذلك أهل الأرض حتى أصحابه العلماء والصالحون ، وهو مع ذلك لا يجيبهم إلى كلمة واحدة مما طلبوا منه ، وما رجع عما جاء به الكتاب والسُّنَّة ولا كتم العلم ، ولا استعمل التقيَّة ، بل قد أظهر من سُنَّة رسول الله ﷺ وآثاره ما دفع به البدع المخالفة لذلك مما لم يتأت مثله لعالم من نظرائه . ولهذا قال بعض علماء الشام : لم يُظهر أحد ما جاء به الرسول كما أظهره أحمد بن حنبل ، فكيف يُظنُّ به أنه كان يخاف هذه الكلمة التي لا قَدْر لها ، وأيضاً فمن أُصوله أنه لا يقول في الدين قولاً مبتدعاً ، فكيف بكلمة ما قالها أحد قبله .

قال : فالمنتسبون إلى السُّنَّة والحديث وإن كانوا أصلح من غيرهم وفيهم من الخير ما لا يوجد في غيرهم ، فإن السُّنَّة في الإسلام كالإسلام في الملل . فكما أنه يوجد في المنتسبين إلى الإسلام ما يوجد في غيرهم من الخير فكل خير فهو في المسلمين أكثر ، وكل شر في المسلمين فهو في غيرهم أكثر ، فكذلك المنتسبون إلى السُّنَّة قد يوجد فيهم من الخير ما لا يوجد في غيرهم ، وإن كان في غيرهم خير فهو فيهم أكثر ، وكل شر فيهم فهو في غيرهم أكثر .

● حكاية الكلام وتبليغه لا يُخرجه عن إسناده إلى مَن صدر عنه :

قال : ويجب القطع بأن كلام الآدميين مخلوق ويُطلق القول بذلك إطلاقاً ولا يحتاج إلى تفصيل بأن يقال : نظمه أو تأليفه ، أو غير ذلك ، وذلك لأن كلام المتكلم هو عبارة عن ألفاظه ومعانيه ، وعامة ما يوجد في كتاب الله وسُنَّة

رسوله وكلام السَلَف وسائر الأمم عربهم وعجمهم فإنه عند إطلاقه يتناول اللّفظ والمعنى جميعاً لشموله لهما ، فيُقال عن كلام الله وهو القرآن : هذا كلام الله ، وهذا كلام فلان .

قال : وأما الأمة الوسط الباقون على الفطرة فيقولون لما بلغه المبلّغ عن غيره وأداه : هذا كلام ذاك لا كلامك وإنما بلّغته بقولك ، كما قال أبو بكر الصدّيق لما خرج على قريش فقرأ : ﴿ آلمَ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ ... الآية (١) فقالوا : هذا كلامك أو كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامى ولا كلام صاحبى ، ولكنه كلام الله .

وفى سُنَن أبى داود من حديث جابر : أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول : « ألا رجل يحملنى الى قومه لأبلّغ كلام ربى ، فإنَّ قريشاً قد منعونى أن أبلّغ كلام ربى عَزَّ وجَلَّ » ، فبيَّن أن ما يُبلّغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه وإن كان يُبلّغه بأفعاله وصوته ، والأمم متفقون على هذا إذا سمعوا مَن يروى قصيدة أو كلاماً أو قرآناً ، أو مسألة قالوا : هذا كلام فلان وقوله فإنه هو الذى اتصف به وألّفه وأنشأه .

قال : وكذلك مَن تبع آباءه الذين سلفوا من غير اعتصام منه بالكتاب والسُنَّة والإجماع فإنه ممن ذمه الله فى كتابه فى مثل قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (٢) ، وفى قوله : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا * وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾ ...(٣) ، وكذلك مَن اتبع الظنون والأهواء معتقداً أنها عقليات

---

(١) الروم : ١ - ٣ (٢) المائدة : ١٠٤ (٣) الأحزاب : ٦٦ - ٦٧

وذوقيات فهو ممن قال الله فيه : ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأنفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الهُدَى ﴾ (١) ، وإنما يفصل بين الناس فيما تنازعوا فيه الكتاب المنزّل من السماء والرسول المؤيّد بالمعجزات كما قال تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيه ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّه ﴾ ... الآية (٤) ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ ... الآية (٥) ، فأخبر سبحانه عمن مضى ممن كان متمسكاً بدين حق من اليهود والنصارى والصابئين ، وعن المؤمنين بعد بعث محمد من جميع الأمم أن مَن تلّبس بهذه الخصال من سائر الأمم وهى جماع الصلاح وهى الإيمان بالله والبعث والمعاد والإيمان بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً - وهو أداء المأمورات وترك المحظورات - فإنّ له أجره عند ربه ولا خوف عليه مما أمامه ولا يحزن على ما وراءه . وإسلام الوجه هو إخلاص الدين لله وهو عبادته وحده لا شريك له وهو حقيقة قول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٦) ، وهو محسن ، فالأول وهو إسلام الوجه هو النيّة ، وهذا الثانى وهو الإحسان هو العمل الصالح . وهذا الذى ذكره فى هاتين الآيتين هو الإيمان العام والإسلام العام الذى أوجبه على جميع عباده من الأوّلين والآخرين ، وهو دين الله العام الذى بعث به جميع الرسل وأنزل به جميع الكتب .

---

(١) النجم : ٢٣ (٢) البقرة : ٢١٣ (٣) النساء : ٥٩

(٤) البقرة : ١١٢ (٥) البقرة : ٦٢ (٦) الفاتحة : ٥

• أول بدعة فى الإسلام وتكفير المؤمن بالذنوب :

فكان أول بدعة حدثت فى هذه الأمة بدعة الخوارج [1] المكَفِّرة بالذنوب

---

(١) الخوارج : اصطلاح يطلق فى التاريخ الإسلامى على طائفة عقائدية سياسية ظهرت فى أواخر عصر الخلفاء الراشدين ، وانبثقت منها على مر الزمن عدة فرق عرفت كل منها باسم خاص بلغت اثنتين وعشرين فرقة ، افترق بعضها على البعض بأقوال تُنسب إلى مؤسس كل فرقة منها ، غير أن الخوارج لا سيما فى الفترة الأولى من نشأتهم متفقون على مسائل أهمها :

١ - أن الخلافة حق لكل مسلم ما دام كفئاً لها ، بمعنى أنهم يخالفون الشيعة وبنى أمية على السواء فى أن يكون الخليفة قرشياً أو أن تنتقل إليه الخلافة بالوراثة .

٢ - كما اتفقوا على تكفير علىّ وعثمان وأصحاب الجمل ، وتكفير الحكمين وكذلك معاوية وأصحابه .

٣ - واتفقوا على خروجهم على السلطان الجائر وعلى تكفير مرتكبى كبار الذنوب ، إذ فى رأيهم أن الاعتقاد بالله ونبيه دون العمل بتعاليم الدين لا يختلف عن الكفر .

لهذا كان الخوارج فى أول أمرهم أهل عبادة حتى تعلقوا بالسياسة .

ونواة الخوارج هم بعض شيعة على - كرم الله وجهه - ممن خرجوا عليه بعد واقعة صفين عام ٣٨ هـ ، ووجه خلافهم معه أن بيعته كانت صحيحة باتفاق مجموع الأمة فما كان له أن يلجأ إلى التحكيم بينه وبين معاوية ، وكان عليه أن يقاتل معاوية قتال المؤمن بحقه ، وأنه كذلك احتكم إلى الرجال ولم يحتكم إلى القرآن ، وأنه بذلك أثار فتنة بين المسلمين كما أثارها عثمان .

وعُرِفَ هؤلاء الخوارج الأول بالحرورية ، كما عُرِفوا باسم المحَكمة الأولى .

وتعتبر الحرورية من أقدم فرق الخوارج تاريخاً ، وتُنسب إلى حروراء - وهى موضع أو قرية بالقرب من الكوفة نزل بها جماعة من شيعة الإمام علىّ بن أبى طالب - على إثر رجوعه من صفين بعد أن خرجوا عليه واختلفوا معه بسبب التحكيم ، فلما دخل علىّ الكوفة افترق عنه هؤلاء وكانت جملتهم اثنى عشر ألفاً ، ونزلوا بحروراء ، ومن هنا عُرِفوا بالحرورية ، كما عُرِفوا بالخوارج ، وراح الحرورية يقاتلون مخالفيهم فهزمهم علىّ - كرم الله وجهه - فى معركة النهروان عام ٣٨ هـ ، ثم تطورت معتقداتهم بعد إمارة معاوية .

ومن زعماء الخوارج فى هذا الدور : عبد الله الراسبى ، وحرموص ، وابن زهير ، والأشرس ، وأصبح الخوارج منذ قيام الدولة الأموية مصدر فتن خطيرة امتزجت فيها العقيدة بالسياسة . =

فإنهم يُكفِّرون الفاسق الملى ، فزعمت الخوارج والمعتزلة أن الذنوب الكبيرة - ومنهم مَن قال : والصغيرة - لا تجامع الإيمان أبداً بل تنافيه وتُفسده كما يُفسد الأكل والشرب الصيام .

قالوا : والايمان هو فعل المأمور وترك المحظور ، فمتى بطل بعضه بطل كله كسائر المركَّبات فيكون العاصى كافراً لأنه ليس إلاّ مؤمن أو كافر .

وقالت المعتزلة (١) : نُنزله منزلة بين المنزلتين : نُخرجه من الإيمان ولا نُدخله

= وتفرَّق الخوارج بين البلاد ، فنزلوا الأهواز وفارس واليمن وعُمان والجزيرة واليمامة ، ثم شمال إفريقيا ، ومن زعمائهم إبَّان هذا العصر : فروة ، وحيان ، وحوثرة ، وقرة بن نوفل ، وزياد العجلى ، والضحاك ، ثم نافع بن الأزرق الذى تُنسب إليه الأزارقة ، وأبو عمر الخارجى .

ومن القوَّاد الأمويين الذى شُغلوا بحرب الخوارج : المغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وعبيد الله ابن زياد ، والمهلب بن أبى صفرة ، والأحنف ، ثم الحجاج .

وأهم فرق الخوارج بعد المَحكمة الأولى :

١ - الأزارقة : أتباع نافع بن الأزرق . ٢ - النجدات : أتباع نجدة بن عامر .

٣ - الصفرية : جماعة زياد بن الأصفر . ٤ - العجاردة : وزعيمها عبد الله عجرد .

وانقسمت العجاردة فرقاً منها : الخازمية والشعيبة والمعلومية والمجهولية والصلتية والحمزية - نسبة الى حمزة الخارجى ، والثعالبة - نسبة الى ثعلبة بن مشكان ، والمعيدية والأخنسية والشيبانية ، والرشيدية ، والمكرمية ، وهذه الفرق الأخيرة من الثعالبة .

٥ - البيهسية : وزعيمها أبو بيهس بن جابر .

٦ - الإباضية : أتباع عبد الله بن إباض ، وقد انتشرت فى شمال إفريقيا وساحل الخليج العربى .

ومن الفرق التى تُنسب إلى الخوارج : الفرقة الشبيبية - نسبة إلى شبيب بن يزيد الذى قُتل على يد الحجاج ، وتفرَّق عنه أصحابه - ومنها : الحفصية والحارثية (البلتاجى) .

(١) المعتزلة : هم جماعة من المسلمين اعتمدوا على المنطق والقياس فى مناقشة القضايا الكلامية . ومن أهم تعاليمهم :

أولاً : أن مقترف الكبيرة ليس بالكافر ولا بالمؤمن ، بل فى منزلة بين المنزلتين . =

في الكفر . وقابلتهم المرجئة والجهمية ومَن اتبعهم من الأشعرية والكرامية [1]

= ثانياً : حرية الاختيار ، أي أن الإنسان ذو إرادة حرة وليس مجبراً على إتيان أعماله .

ثالثاً : خلق القرآن .

كما ناقشوا قضايا التوحيد والعدل والصفات الإلهية . وأشهر زعماء المعتزلة : واصل بن عطاء (المتوفى عام ١٣١ هـ) ، وعمرو بن عبيد (المتوفى عام ١٤٤ هـ) اللذان انفصلا عن الحسن البصري (المتوفى عام ١١٠ هـ) ، وانظر جـ ١ هامش ص ٢١٣ (البلتاجي) .

(٢) المرجئة : من الفرق الإسلامية ، والإرجاء في اللُّغة - وهو الاسم الذي تُنسب إليه هذه الفرقة - يكون بمعنى الإمهال أو الرجاء . فالمرجئة يقولون : إنه لا يجوز أن يقضى على إنسان بحكم ما في الدنيا بأنه من أهل الجنة أو النار ، ويقولون : إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان ، وإنه لا يضر مع الإيمان معصية ما دام الله لا يعذب الفاسقين من هذه الأمة ، وإن ما دون الشرك مغفور لا محالة ، فإذا مات العبد على توحيده لا يضره ما اقترف من الذنوب .

وتنقسم المرجئة إلى طوائف منها : اليونسية ، والغسانية ، والثوبانية .

- والجهمية : فرقة من الجَبرية الخالصة ممن يُطلق عليهم « أهل الأهواء » ، تُنسب إلى جهم بن صفوان (المتوفى عام ١٢٨ هـ) ، وقد أشاع مذهبه في « ترند » ، ومن أقوال الجهمية : نفي الصفات الأزلية ، وقولهم بأنه لا يجوز أن يُوصف الله تعالى بصفة يُوصف بها خلقه ، لأن ذلك يقتضي تشبيهاً ، لذلك نفى الجهمية الحياة والعلم عن الله تعالى ، وأثبتوا الصفات التي ينفرد بها عن الخلق كالقُدرة والفعل والخلق ، فقالوا في وصفه سبحانه : إنه قادر ، موجد ، فاعل ، خالق ، محيي ، مميت ...

وللدارمي المحدِّث صاحب السنن (المتوفى عام ٢٥٥ هـ) كتاب في الرد على الجهمية ، وانظر هامش جـ ١ ص ١١٧ (البلتاجي) .

- أما الأشعرية : فهم أتباع أبي الحسن الأشعري مؤسس المذهب الكلامي الإسلامي المنسوب إليه ، والذي اعتنقه أهل السُّنَّة وأصحاب الحديث وخاصة الشافعية ، وهو مذهب يعارض المعتزلة وسائر الفرق التي تُتهم بالانحراف .

أنتشر المذهب الأشعري بمختلف البلاد الإسلامية ، وبرز فيه أعلام من أمثال : الباقلاني ، وابن فورك ، والإسفراييني ، والجويني ، والغزالي .

وبالرغم من اعتداد الأشعرية بالعقل ، فإنهم لم يمنحوه سلطة التحسين أو التقبيح ، كما لم يجاروا المعتزلة في وجوب تحري مصالح العباد بالنسبة للإله ، وانظر هامش جـ ١ ص ٢٥٣ .(البلتاجي)

فقالوا : ليس من الإيمان فعل الأعمال الواجبة ولا ترك المحظورات البدنية ، فإن الإيمان لا يقبل الزيادة ولا النقصان ، بل هو شيء واحد يستوى فيه جميع المؤمنين من الملائكة والمقتصدين والمقرّبين والظالمين .

= - الكرّامية : هم أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام - الذى يُعد من الصفانية لأنه كان ممن يثبت الصفات ، إلا أنه ينتهى فيها إلى التجسيم والتشبيه .

وتنقسم الكرّامية إلى اثنتى عشر فرقة ، وأصولها ستة هى : العابدية والنونية والزرينية والإسحاقية ، والواحدية ، وأقربهم الهيصمية ، ولكل واحدة منهم رأى ، إلا أنه لم يصدر ذلك عن علماء معتبرين ، بل عن سفهاء جاهلين .

والكرّامية وإن كانوا يذهبون مذهب الصفانية الذين يُثبتون لله صفات يتميز بها ، ويقسمون هذه الصفات إلى صفات أزلية (أو صفات الذات) ، وإلى صفات أفعال ، إلا أنهم يقولون بأن الله - سبحانه - على العرش استقراراً ، وأنه بجهة فوق ذاتاً ، ويطلقون عليه اسم « الجوهر » ، وأن هذا الجوهر مماس للعرش من الصفحة العليا ، ويجوز عليه الانتقال والتجول والنزول ، ويعنون بكونه جسماً أنه قائم بذاته وهذا هو الجسم عندهم .

ومن أصولهم أن ما يحدث فى ذات الله تعالى إنما يحدث بقدرته ، وما يحدث مبايناً لذاته فإنما يحدث بواسطة الإحداث ، ويعنون بها الإيجاد والإعدام الواقعين فى ذاته بقُدرته من الأقوال والإرادات ، ويعنون بالمحدَث ما باين ذاته عن الجواهر والأعراض ، فيفرّقون بين الخلق والمخلوق ، والإيجاد والموجود والموجد ، وكذلك بين الإعدام والمعدوم .

ويقولون إن القدَر خيره وشره من الله تعالى ، وأنه - سبحانه - أراد الكائنات كلها خيرها وشرها ، وخلق الموجودات كلها حسنها وقبيحها ، ويثبتون للعبد فعلاً بالقُدرة الحادثة ويسمونها كسباً .

ويزعم بعض الكرّامية أن الله تعالى خلق آدم بيده ، وأنه استوى على عرشه ، وأنه يجئ يوم القيامة لمحاسبة الخلق .

ويقولون - جميعهم - بأن الإمامة تثبت بإجماع الأمة دون النص والتعيين - كما يقول أهل السُنّة - إلا أنهم قالوا بجواز عقد البيعة لإمامين فى قطرين ، وغرضهم إثبات إمامة معاوية بالشام باتفاق جماعة من الصحابة ، وإثبات إمامة علىّ بن أبى طالب بالمدينة والعراقين باتفاق جماعة من الصحابة .

(البلتاجى)

• تفسير قول السَلَف « الإيمان قول وعمل » ، وبيان إجماله :

وأما السَلَف والأئمة فاتفقوا على أن الإيمان قول وعمل ، فيدخل فى القول قول القلب واللسان ، وفى العمل عمل القلب والأركان ، وقال المنتصرون لمذهبهم [١] : إنَّ للإيمان أُصولاً وفروعاً ، وهو مشتمل على أركان وواجبات ومستحبات بمنزلة اسم الحج والصلاة وغيرها من العبادات ، فإن اسم الحج يتناول كل ما يُشرع فيه من فعل أو ترك مثل الإحرام ومثل ترك محظوراته والوقوف بعرفه ومزدلفة ومِنَى والطواف بالبيت وبين الجبلين المكتنفين له وهما الصفا والمروة . ثم الحج مع هذا اشتمل على أركان متى تُركت لم يصح الحج كالوقوف بعرفة ، وعلى ترك محظور متى فعله فسد حجه وهى الوطء ، ومشتمل على واجبات من فعل وترك يأثم بتركها عمداً ، ويجب مع تركها لعذر أو غيره الجبران بدم ، كالإحرام من المواقيت المكانية ، والجمع بين اللّيل والنهار بعرفة ، وكرمى الجمار ونحو ذلك ، ومشتمل على مستحبَات من فعل وترك يكمل الحج بها ولا يأثم بتركها ولا توجب دماً ، مثل رفع الصوت بالإهلال والإكثار منه وسوق الهَدى وذكر اللّه ودعائه فى تلك المواضع ، وقلة الكلام إلا فى أمر أو نهى أو ذِكر : مَن فعل الواجب وترك المحظور فقد تَمَّ حجه وعُمرته للّه وهو مقتصد من أصحاب اليمين فى هذا العمل ، لكن مَن أتى بالمستحَب فهو أكمل منه وأتم حجاً وعملاً وهو سابق مُقرَّب ، ومَن ترك المأمور وفعل المحظور لكنه أتى بأركانه وترك مفسداته فهو حج ناقص يُثاب على ما فعله من الحج ويُعاقَب على ما تركه ، وقد سقط عنه أصل الفرض بذلك مع عقوبته على ما ترك ، ومَن أخَلَّ بركن أو فعل مفسداً فحجه فاسد لا يسقط به فرضه بل عليه إعادته ، مع أنه قد تنازعوا فى إثابته على ما فعله وإن لم يسقط به الفرض ، والأشبه أنه يُثاب

(١) لفظ : « وقال » لبس من الأصل الذى طبعنا عنه ولكنها ضرورية .

عليه ، فصار الحج ثلاثة أقسام : كاملاً بالمستحَبات ، وتاماً بالواجبات فقط ، وناقصاً عن الواجب ، والفقهاء يُقَسِّمون الوضوء إلى كامل فقط ومجزىء ، ويريدون بالكامل ما أتى بمفروضه ومسنونه ، وبالمجزىء ما اقتصر على واجبه ، فهذا فى الأعمال المشروعة وكذلك فى الأعيان المشهودة ، فإن الشجرة مثلاً اسم لمجموع الجذع والأغصان ، وهى بعد ذهاب الورق شجرة كاملة وبعد ذهاب الأغصان شجرة ناقصة ، فليكن مثل ذلك فى مسمى الإيمان .

• الإيمان كالصلاة والحج ، يبطل ببعض متعلقاته دون بعض :

والذين قالوا [1] : الإيمان ثلاث درجات : إيمان السابقين المقرَّبين ، وهو ما أُتِىَ فيه بالواجبات والمستحبَّات من فعل وترك ، وإيمان المتقصدين أصحاب اليمين وهو ما ترك صاحبه فيه بعض الواجبات ، أو فعل فيه بعض المحظورات ، ولهذا قال علماء السُنَّة : لا يكفر أحد بذنب ، إشارة إلى بدعة الخوارج الذين يُكَفِّرون بالذنب ، وإيمان الظالمين لأنفسهم وهو مَن أقَرَّ بأصل الإيمان – وهو الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله وهو شهادة أنَّ لا إلٰه إلا الله – ولم يفعل المأمورات ويجتنب المحظورات ، فإن أصل الإيمان التصديق والانقياد ، فهذا أصل الإيمان الذى مَن لم يأت به فليس بمؤمن وقد تواتر فى الأحاديث : « أخرِجوا من النار مَن كان فى قلبه مثقال ذَرَّة من إيمان ، مثقال حَبَّة من خير ، مثقال ذَرَّة من خير » ، و « الإيمان بِضع وستون – أو بِضع وسبعون [2] – شُعبة أعلاها : قول لا إلٰه إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شُعبة من الإيمان » .. فعُلِمَ

---

(١) قوله : « والذين قالوا ... » ليس بعده ما يصلح أن يكون خبراً له ، فالظاهر أن أصله : وقالوا ....

(٢) هذه رواية مسلم بالشك ، واعتمد البخارى رواية العدد الأول ، وأصحاب السُنَن العدد الثانى .

أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة ، وأنَّ قليله يخرج به صاحبه من النار إن دخلها ، وليس كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل السُنَّة أنه لا يقبل التبعيض والتجزئة بل هو شيء واحد إما أن يحصل كله وإما أن لا يحصل منه شيء .

● الإيمان الكامل والإيمان الناقص وزيادة الإيمان :

واعلم أن عامة السور المكية التى أنزلها الله بمكة هى فى هذا الإيمان العام المشترك بين الأنبياء جميعهم . وهذا القَدْر المشترك هو فى بعض الملل أعظم قدراً ووصفاً ، فإن ما جاء به محمد من صفات الله وأسمائه وذِكر اليوم الآخر أكمل مما جاء به سائر الأنبياء ، ومنه ما تختلف فيه الشرائع والمناهج كالقِبلة والنُسُك ومقادير العبادات وأوقاتها وصفاتها ، والسُنَن والأحكام ... وغير ذلك فمسمى الإيمان والدين فى أول الإسلام ليس هو مسماه فى آخر زمان النبُّوة ، بل مسماه فى الآخر أكمل من مسماه فى أول البعثة وأوسطها ، كما قال تعالى فى آخر الأمر : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [1] ، وقال بعدها : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [2] ، ولهذا قال الإمام أحمد : كان الإيمان فى أول الإسلام ناقصاً فجعل يتم ، وهكذا مسمى الإيمان والدين قد يتنوَّع بحسب الأشخاص ، وبحسب أمر الله كُلاً منهم ، وبحسب ما يفعله مما أمر به ، وبحسب إقباله وحضوره وإخلاصه ، فإن المؤمنين من الأوَّلين والآخرين مشتركون فى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ولكن بينهم تفاوت ما فى القلوب إذا ذكر الله وما فى اليوم الآخر ما تفاوت به الإيمان ، فعند ذكر الجنة والنجاة من النار وذم مَن ترك بعضه ونحو ذلك يزداد الإيمان الواجب لقوله :

---

(١) المائدة : ٣ (٢) المائدة : ٥

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ ...الآية [١] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ... الآيات [٢] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾.... الآية [٣] ، وقوله في الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [٤] وقوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » .... الحديث . نفى الإيمان الواجب عنه الذى يستحق به الجنة ولا يستلزم ذلك نفى أصل الإيمان وسائر أجزائه وشُعبه ، وهذا معنى قولهم : نفى كمال الإيمان ، وحقيقة ذلك أن الكمال الواجب ليس هو الكمال المستحَب المذكور فى قول الفقهاء : الغُسل كامل ومجزىء ، ومنه قوله عليه السلام : « مَن غشنا فليس منا » ليس المراد به أنه كافر كما تأوَّلته الخوارج ، ولا أنه ليس من خيارنا كما تأولته المرجئة ، ولكن المضمر يطابق المظهر ، والمظهر هو المؤمنون المستحقون للثواب ، السالمون من العذاب ، والغاش ليس منا [٥] لأنه متعرض لعذاب الله وسخطه .

إذا تبيَّن هذا فمَن ترك بعض الإيمان الواجب فى الجملة لعجزه عنه - إما لعدم تمكنه من العلم أو لعدم تمكنه من العمل - لم يكن مأموراً بما يعجز عنه ، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب فى حقه ، وإن كان من الدين والإيمان الواجب فى الأصل ، بمنزلة صلاة المريض والخائف وسائر أهل الأعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة ، فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه وبه أُمِرُوا ، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أفضل وأكمل كما قال النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كُلٍّ خير » (رواه مسلم من حديث أبى هريرة) ، وفى حديث حسن السياق : « إنَّ الله يلوم على

---

(١) الحجرات : ١٥ (٢) الأنفال : ٢ (٣) النور : ٦٢

(٤) الحديد : ٢١ (٥) الأظهر أن يكون : ليس منهم .

العجز ولكن عليك بالكيس » ولو أمكنه العلم به دون العمل لوجب الإيمان به علماً واعتقاداً وإن لم يعمل به .

● لا يُكَفِّر جميع السيئات إلا التوبة ، ولا يُحبط جميع الحسنات إلا الرِّدة :

قال : فإن الله قد بيَّن بنصوص معروفة أن الحسنات يُذهبن السيئات ، وأنه مَن يعمل مثقال ذَرَّة خيراً يره ، ومَن يعمل مثقال ذَرَّة شراً يره ، وأن مصائب الدنيا تُكَفِّر الذنوب ، وأنه يقبل شفاعة النبى ﷺ فى أهل الكبائر، وأنه يغفر الذنوب جميعاً ، ويغفر ما دون الشرك ، وأن الصدقة يُبطلها المَنُّ والأذى ، وأن الرياء يُبطل العمل ... ونحو ذلك ، فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها ، كما قد جعل للحسنات ما قد يُبطل ثوابها ، لكن ليس شيء يُبطل جميع السيئات إلاَّ التوبة ، كما أنه ليس شيء يُبطل جميع الحسنات إلاَّ الرِّدة ، وبهذا يتبين أنَّا نشهد بأن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً على الإطلاق والعموم ، ولا نشهد لمعيَّن أنه فى النار لأنَّا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه ، لأن لحوق الوعيد بالمعيَّن مشروط بشروط وانتفاء موانع ، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع فى حقه . وفائدة هذا الوعيد أن هذا الذنب سببٌ مقتضٍ لهذا العذاب ، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه وانتفاء مانعه .

يُبيِّن هذا أنه قد ثبت عن النبى ﷺ أنه لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها . وثبت عنه فى الصحيح أنَّ رجلاً كان يُكثر شرب الخمر فلعنه رجل فقال النبى ﷺ : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » فنهى عن لعن هذا المعيَّن وهو مدمن الخمر لأنه يحب الله ورسوله ، وقد لعن أولاً شاربها على العموم .

• تكفير أحمد وعامة أئمة السُنَّة للجهمية دون غيرهم من المبتدعة :

قال : فمسألة تكفير أهل البدع والأهواء متفرعة على هذا الاصل ، فنبدأ بمذاهب الأئمة فى ذلك قبل التنبيه على الحُجَّة فنقول : المشهور من مذهب أحمد وعامة أئمة السُنَّة تكفير الجهمية وهم المعطلة لصفات الرحمن ، فإن قولهم صريح فى مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب ، وحقيقة قولهم جحود الصانع وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسوله ، بل وجميع الرسل . ولهذا قال عبد الله بن المبارك : إنَّا لنحكى كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية . وقال غير واحد من الأئمة : إنهم أكفر من اليهود والنصارى . وبهذا كَفَّروا مَن يقول إن القرآن مخلوق ، وإن الله لا يُرَى فى الآخرة ، وإن الله ليس على العرش ، وإنه ليس له علم ولا قُدرة ولا رحمة ولا غضب ... ونحو ذلك من صفاته ، وأما المرجئة فلا تختلف نصوصه أنه لا يُكَفِّرهم فإن بدعهم من جنس اختلاف الفقهاء فى الفروع ، وكذلك الذين يُفَضِّلُون علياً على أبى بكر لا يختلف قوله إنه لا يُكَفِّرهم ، وذلك قول طائفة من الفقهاء ولكن يُبَدِّعون .

قال : وعنه فى تكفير مَن لم يُكَفِّر الجهمية روايتان أصحهما : لا يكفر . والجهمية عند كثير من السَلَف – مثل ابن المبارك ويوسف بن أسباط وطائفة من أصحاب أحمد – ليسوا من الثلاث والسبعين فرقة التى افترقت عليها هذه الأمة ، بل أصول هذه الفِرق هم الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية .

قال : فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها [1] ، وإثابة قائلها ، وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها .

---

(١) هذه الجملة تعليل لمن كفّروا دعاة البدعة دون سائر أهلها ، وكان ينبغى لابن عروة أن لا يحذف ذكرهم من تلخيصه لكلام شيخ الإسلام .

● الخطأ المعفو عنه فى أمور الإيمان بالقطعيات :

قال : وفى الأدلة الشرعية ما يوجب أن الله لا يُعَذِّب من هذه الأمة مخطئاً على خطأه وإن عَذَّب المخطئ من غير هذه الأمة ، فقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله : إذا مات فَحَرِّقوه ثم ذَرُّوا نصفه فى البَر ونصفه فى البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يُعذِّبه أحداً من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم ، فأمر الله البَر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه ثم قال : لِمَ فعلتَ هذا ؟ قال : من خشيتك يارب وأنت أعلم ، فغفر له » . وهذا الحديث متواتر عن النبى ﷺ رواه أصحاب الصحيح والمساند من حديث أبى سعيد وحذيفة وعقبة بن عامر وغيرهم عن النبى ﷺ من وجوه متعددة يعلم أهل الحديث أنها تفيد العلم اليقينى وإن لم يحصل ذلك لغيرهم ، فهذا الرجل قد وقع له الشك والجهل فى قُدرة الله تعالى على إعادة مَن يصل إلى الحالة التى أمر أهله أن يفعلوها به ، وأنَّ من أُحْرِق وذُرِّى لا يقدر الله أن يعيده ويحشره إذا فُعِلَ به ذلك ، وأنه ظَنَّ ذلك ظناً ولم يجزم به .

وهذان أصلان عظيمان : أحدهما متعلق بالله وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير ، والثانى متعلق باليوم الآخر وهو الإيمان بأن الله يُعيد هذا الميت ولو صار إلى ما يقدِّر صيرورته إليه مهما كان فلا بد أن الله يُحييه ويجزيه بأعماله . فهذا الرجل مع هذا لما كان مؤمناً بالله فى الجملة ومؤمناً باليوم الآخر فى الجملة وهو أن الله يُثيب ويُعاقب بعد الموت ، فهذا عمل صالح وهو خوفه من الله أن يعاقبه على تفريطه غُفِرَ له بما كان معه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإنما أخطأ من شدة خوفه ، كما أن الذى وجد راحلته بعد إياسه منها أخطأ من شدة فرحه .

• التكفير بالخطأ فى الاعتقاديات والاجتهاد فى العمليات :

وقد وقع الخطأ كثيراً لخلق من هذه الأمة واتفقوا على عدم تكفير مَن أخطأ ، مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحى ، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة ، ولبعضهم فى الخلافة والتفضيل كلام ، وكذلك لبعضهم فى قتال بعض وتكفير بعض أقوال معروفة ، وكان القاضى شريح ينكر قراءة مَن قرأ : ﴿ بَلْ عَجِبْتُ ﴾ (١) ويقول : إنّ الله لا يعجب ، فبلغ ذلك إبراهيم النخعى فقال : إنما شريح شاعر يعجبه علمه ، كان عبد الله أفقه منه وكان يقرأ : ﴿ بَلْ عَجِبْتُ ﴾ فهذا قد أنكر قراءة ثابتة ، وأنكر صفة لله دلّ عليها الكتاب والسُنّة ، واتفقت الأمة على أن شريحاً إمام من الأئمة ، وكذلك بعض العلماء أنكر حروفاً من القرآن كما أنكر بعضهم : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) فقال : إنما هى : « أو لم يتبين الذين آمنوا » ، وآخر أنكر : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ﴾ (٣) فقال : إنما هى : « ووصى ربك » ، وبعضهم كان حذف المعوذتين . وآخر يكتب سورتى القنوت . وهذا الخطأ معفو عنه بالإجماع ، وكذلك الخطأ فى الفروع العملية فإن المخطئ فيها لا يكفر ولا يفسق بل ولا يأثم ، وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة بجعل المخطئ فيها آثماً ، وبعض المتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب ، فهذان القولان شاذان ولم يقل أحد بتكفير المخطئ فيها ، فقد أخطأ بعض السَلَف فيها مثل خطأ بعضهم فى بعض انواع الربا ، واستحلال آخرين الخمر ، واستحلال آخرين القتال فى الفتنة . وقد قال تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ (٤) ، وفى الصحيح : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » .

---

(١) الصافات : ١٢ - وهى فى السورة بنصب التاء وليس رفعها .

(٢) الرعد : ٣١ (٣) الإسراء : ٢٣ (٤) الأنبياء : ٧٨ - ٧٩

• ما كل ما هو كفر يكفر به الشخص المعيَّن :

والسُنَّة والإجماع منعقد على أنَّ مَن بلغته دعوة النبى ﷺ فلم يؤمن فهو كافر لا يُقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوَّة ، والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهذه الأمة . وإذا كان كذلك فالمخطئ فى بعض هذه المسائل إما أن يُلحَق بالكفار من المشركين وأهل الكتاب مع مباينته لهم فى عامة أصول الإيمان ، وإما أن يُلحَق بالمخطئين فى مسائل الإيجاب والتحريم مع أنها أيضاً من أصول الإيمان ، فإن الإيمان الذى يوجب الواجبات الظاهرة المتواترة وتحريم المحرَّمات الظاهرة المتواترة هو أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين ، والجاحد لها كافر بالاتفاق ، مع أن المجتهد فى بعضها إذا أخطأ ليس بكافر بالاتفاق ، وإذا كان لا بد من إلحاقه بأحد الصنفين فإلحاقه بالمؤمنين المخطئين أشد شبهاً من إلحاقه بالمشركين وأهل الكتاب ، مع العلم بأن كثيراً من أهل البدع منافقون النفاق الأكبر ، فما أكثر ما يوجد فى الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون [١] وأولئك فى الدرَك الأسفل من النار . بل أصل هذه البدع من المنافقين الزنادقة ممن يكون أصل زندقته مأخوذاً عن الصابئين والمشركين ، وأصل هؤلاء هو الإعراض عما جاء به الرسول من الكتاب والحكمة وابتغاء الهُدَى فى غير ذلك ممن كان هذا أصله ، فهو يعد الرسالة إنما هى للعامة دون الخاصة ، كما يقوله قوم من المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة . فنفى الصفات كفر ، والتكذيب بأن الله لا يُرَى فى الآخرة كفر ، وإنكار أن يكون الله على العرش كفر ، وكذلك ما كان فى معنى ذلك كإنكار تكليم الله لموسى واتخاذ الله إبراهيم خليلاً .

---

(١) كذا فى الأصل وهو محرَّف . فإما أن يكون أول الجملة : « فأكثر ما يوجد ... إلخ » ، وإما أن يكون آخرها : « من الزنادقة المنافقين » .

● الجزاء فى الآخرة :

قال : فإن الجزاء فى الحقيقة إنما هو فى الدار الآخرة التى هى دار الثواب والعقاب . وأما الدنيا فإنما يُشرع فيها ما شُرِعَ من العقوبات دفعاً للظلم والعدوان وكسراً للنفوس العاتية الباغية ودفعاً لشر الجبار الطاغى ، وإذا كان الأمر كذلك ، فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ولا بالعكس ، ولهذا أكثر السَلَف على قتل الداعى إلى البدعة لما يجرى على يديه من الفساد فى الدين سواء قالوا هو كافر أو ليس بكافر .

وإذا عُرِفَ هذا فتكفير المعيَّن من هؤلاء الجُهَّال وأمثالهم بحيث يُحكم عليه بأنه مع الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحُجَّة بالرسالة التى يبين بها لهم أنهم مخالفون للرسول ، وإن كانت مقالتهم هذه لا ريب أنها كفر ، وهكذا الكلام فى جميع تكفير المعينين ، مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض ، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان والعمل الصالح ما ليس فى بعض ، والله أعلم .

* * *

فصل

« فى مسألة القرآن العزيز وذكر دلالة الكتاب والسُنَّة على ما اتفق عليه السَلَف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومَن بعدهم من أئمة المسلمين - الأئمة الأربعة وغيرهم - والتنبيه على الأقوال التى حدثت بعد السَلَف الصالح كقول السَلَف : إنَّ القرآن كلام الله » .

● تحقيق كون القرآن كلام الله منزل منه :

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (١) ، وهو مُنَزَّل من الله كما قَالَ تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَماً

---

(١) التوبة : ٦

وَهُوَ الَّذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتَابَ مُفَصَّلاً ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (١) ، فأخبر سبحانه أنهم يعلمون ذلك والعلم لا يكون إلاً حقاً .

وقال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الكتَاب منَ اللَّه العَزيز الحَكيم ﴾ (٢) ، ﴿ حم * تَنزيلُ الكتَاب منَ اللَّه العَزيز العَلِيم ﴾ (٣) ، ﴿ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (٦) ... ونحو ذلك ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (٧) ، فأخبر سبحانه أنه منزّل من الله ولم يخبر عن شىء أنه منزّل من الله إلا كلامه ، بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك ، ولهذا كان القول المشهور عن السَلَف : أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فإن مَن قال إنه مخلوق يقول : إنه خُلِقَ فى بعض المخلوقات القائمة بنفسها ، فمن ذلك المخلوق نزل وبدأ ، لم ينزل من الله ، فإخبار الله تعالى أنه منزّل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله ، ولهذا فسَّر الإمام أحمد قوله : « منه بدأ » - أى هو المتكلم ، وقال أحمد : كلام الله من الله ليس ببائن عنه ، وأيضاً فلو كان مخلوقاً فى غيره لم يكن كلامه بل كان يكون كلاماً لذلك المخلوق فيه ، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الإرادة والمحبة والمشيئة والرضا والغضب والمقت ... وغير ذلك من الأمور ، لو كان مخلوقاً فى غيره لم يكن الرب تعالى متصفاً به ، بل كان يكون صفة لذلك المحل ، فإن المعنى إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره

---

(١) الأنعام : ١١٤ (٢) الزمر : ١ (٣) غافر : ١ - ٢

(٤) فصلت : ١ - ٢ (٥) السجدة : ١٣ (٦) طه : ١٢٩

(٧) النحل : ١٠٢

فيمتنع أن يكون المخلوق أو الخالق موصوفاً بصفة موجودة قائمة بغيره لأنه فطر ذلك [1] ما وصف به نفسه من الأفعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بأمر لم يقم به . وهذا مبسوط فى مواضع أخر .

• الشواهد والنصوص فى كون القرآن كلام الله تعالى حقيقة :

ومن قول السَلَف : إن الناس من الله تعالى كما يقول ذلك بعض المتأخرين ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ [2] ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال لى النبى ﷺ : « اقرأ علىَّ القرآن » قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « إنى أحب أن أسمعه من غيرى » ، فقرأتُ عليه سورة النساء ، حتى بلغتُ إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً ﴾ [3] ، قال : « حسبك » ، فنظرتُ فإذا عيناه تذرفان من البكاء ، والنبى ﷺ سمعه من جبريل وهو الذى نزل عليه به ، وجبريل سمعه من الله تعالى ، كما نَصَّ على ذلك أحمد وغيره من الأئمة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [4] ، وقال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [5] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ

---

(١) قوله : « لأنه فطر ذلك » ليس له معنى ، فلا بد أن يكون محرَّفاً وما قبله وما بعده سيأتى بيانه فى مواضيع أخرى من هذه المباحث كما أشار إليه فى قوله : « وهذا مبسوط فى مواضع أخر » .

(٢) آل عمران : ١٦٤ — (٣) النساء : ٤١

(٤) البقرة : ٩٧ — (٥) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥

رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (١) . فأخبر سبحانه أنه نزَّله روح القدس - وهو الروح الأمين وهو جبريل - من الله بالحق ، ولم يقل أحد من السَّلف أن النبى ﷺ سمعه من الله وإنما قال ذلك بعض المتأخرين ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٢) هو كقوله تعالى : ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (٤) ... ونحو ذلك مما يكون الرب فعله بملائكته ، فإن لفظ « نحن » هو للواحد المطاع الذى له أعوان يطيعونه ، فالرب تعالى خلق الملائكة وغيرها ، تطيعه الملائكة أعظم مما يطيع المخلوق أعوانه ، فهو سبحانه أحق باسم « نحن » ، و « فعلنا » ... ونحو ذلك من كل ما يُستعمل .

وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : أنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما . وقال سعيد بن جبير : أنا أحركهما كما رأيتُ ابن عباس يحركهما ، فحرَّك شفتيه فأنزل الله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (٥) ، قال : جمعه لك فى صدرك وتقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٦) فإذا قرأه رسولنا - وفى لفظ : فإذا قرأه جبريل - فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٧) أى نقرؤه . فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبى ﷺ كما قرأه .

---

(١) النحل : ١٠١ - ١٠٢ — (٢) القيامة : ١٧ - ١٩ — (٣) القصص : ٣

(٤) يوسف : ٣ — (٥) القيامة : ١٦ - ١٧ — (٦) القيامة : ١٨

(٧) القيامة : ١٩

● تكليم الله لعباده ثلاثة أنواع :

وقد بيَّن الله تعالى أنواع تكليمه لعباده في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْيًا أوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) ، فبيَّن سبحانه أن التكليم تارة يكون وحياً ، وتارة من وراء حجاب كما كَلَّم موسى ، وتارة يُرسل رسولاً فيوحي الرسول بإذن الله ما يشاء ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (٢) ، فإذا أرسل الله تعالى رسولاً كان ذلك مما يُكَلِّم به عباده فيتلوه عليهم وينبئهم به كما قال تعالى : ﴿ قُل لا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ (٣) ، وإنما نبأهم بوساطة الرسول ، والرسول مبلِّغ به ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاتِ رَبِّهِمْ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٦) ، والرسول أمر أمته بالتبليغ عنه . ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : « بلِّغوا عني ولو آية وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج ، ومَن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، وقال ﷺ ، لما خطب المسلمين : « ليبلِّغ الشاهد الغائب ، فَرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع » ، وقال ﷺ : « نَضَّرَ الله امرأ سمع منا حديثاً فبلَّغه إلى مَن لم يسمعه ، فَرُبَّ حامل فقه إلى غير فقيه ، ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه » ، وفي السُّنَن عن جابر قال : كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأُبَلِّغ كلام ربي ، فإن قريشاً منعوني أن أُبَلِّغ كلام ربي » ، وكما لم يقل أحد من السَّلَف إنه مخلوق ، فلم يقل أحد منهم إنه قديم ، لم يقل واحداً من القولين أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا من

---

(١) الشورى : ٥١ (٢) الحج : ٧٥ (٣) التوبة : ٩٤
(٤) المائدة : ٦٧ (٥) الجن : ٢٨ (٦) النور : ٥٤

بعدهم من الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، بل الآثار متواترة عنهم بأنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله ، ولما ظهر مَن قال إنه مخلوق قالوا رداً لكلامه : إنه غير مخلوق ، ولم يريدوا بذلك أنه مفتريٌ كما ظنه بعض الناس فإن أحداً من المسلمين لم يقل إنه مفترىً بل هذا كفر ظاهر يعلمه كل مسلم ، وإنما قالوا : إنه مخلوق خلقه الله فى غيره ، فرَدَّ السَلَف هذا القول ، كما تواترت الآثار عنهم بذلك وصُنّفَ فى ذلك مصنفات متعددة وقالوا : منه بدأ واليه يعود .

• أول مَن قال : « القرآن مخلوق » ، ومَن قال : « قديم » ومَن قال : « معنى واحد » :

وأول مَن عُرِفَ أنه قال : مخلوق - الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان [1] .

---

(١) الجعد بن درهم : من أصحاب الآراء المنحرفة وممن اتهموا بالزندقة ، عاش بشمال العراق فى أواخر حكم الدولة الأموية ، قيل : كان مؤدباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ومن ثمّ عُرِف - الخليفة - بالجعدى نسبة إلى الجعد بن درهم .

وأول مَن قال بخلق القرآن هو الجعد بن درهم ، مما أثار الفتنة بعد ذلك فى خلافة الرشيد ، قتله خالد القسرى أمير العراق لزندقته بأمر هشام بن عبد الملك حوالى عام ١١٨ هـ .

- أما الجهم بن صفوان : فهو أحد أصحاب الفرق من الجبرية ، وهو أبو محرز جهم بن صفوان الراسبى ، وإليه تنسب الفرقة الجهمية ، نشأ بسمرقند وكان من موالى بنى راسب فنسب إليهم ، ودعا لمذهبه فى ترمذ وغيرها من بلاد خراسان ، واتصل بالحارث بن سريج الذى ثار على الخليفة هشام بن عبد الملك لأسباب أخذها على نظام الحكم ومجافاته لروح الإسلام ، وكانت فتنة حتى قضى عليها نصر ابن سيار أمير خراسان ، وفيها قتل الحارث كما قتل الجهم عام ١٢٨ هـ .

- أما القول بخلق القرآن ، فالمقصود به أنه حادث مخلوق وليس قديماً موجوداً من الأزل ، وهو الموضوع الذى أثار الجدل فى خلافة المأمون العباسى وبعده ، وعرف هذا الحادث بمحنة خلق القرآن ، وذلك أن المأمون أعلن فى عام ٢١٢ هـ - متأثراً بآراء بعض المعتزلة - أن القرآن مخلوق وليس قديماً ، وظن أنه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الأمة فإنهم سوف يجيبونه إلى إعلان رضاهم به ، ولكن النتيجة جاءت عكس ما ظن ، ورفض فقهاء عصره هذا القول وغلا بعضهم فى ذلك فقال بتكفير مَن رأى القول بخلق القرآن . =

وأول مَن عُرِفَ أنه قال : هو قديم – عبد الله بن سعيد بن كلاب ، ثم افترق الذين شاركوه فى هذا القول ، فمنهم مَن قال : الكلام معنى واحد قائم بذات الرب ومعنى القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذى لا يتعدد ولا يتبعض ، والقرآن العربى لم يتكلم الله به بل هو مخلوق خلقه فى غيره . وقال جمهور العقلاء : هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار فإنه من المعلوم بصريح العقل أن معنى آية الكرسى ليس معنى آية الدَّيْن ، ولا معنى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ معنى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، فكيف بمعانى كلام الله كله فى الكتب المنزَّلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه . ومنهم مَن قال : هو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يزل ولا يزال موصوفاً بها . وكِلاَ الحزبين يقول : إن الله تعالى لا يتكلم بمشيئته وقُدرته ، وإنه لم يزل ولا يزال يقول : يا نوح ، يا إبراهيم ، يا أيها المزمل ، يا أيها المدثر ، كما قد بُسِطَت أقوالهم فى غير هذا الموضع ، ولم يقل أحد السَلَف بواحد من القولين ، ولم يقل أحد من السلف إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله ولا حكاية له ، ولا قال أحد منهم : إن لفظى

= وعاشت محنة خلق القرآن عشرين سنة ، وعاصرت خلافة « المأمون » وأخيه « المعتصم » وابنه « الواثق » ، وبدأت المحنة منذ أن طلب المأمون من أمير بغداد « إسحاق بن إبراهيم » أن يمتحن ثلاثين من علمائها فأجمعوا على أن القرآن قديم ، بمعنى أن القرآن ذاته شئ غير النطق بألفاظه الذى هو فعل حادث ، وكان من أبرز الفقهاء الذين عارضوا هذا القول : الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١ هـ) ، فكُبِّل بالحديد وسُجِن وعُذِّب ولكنه أصر على إنكار القول بأن القرآن مخلوق .

وأوصى المأمون إلى أخيه « المعتصم » أن يسير بسيرته فى القرآن ، وبعد وفاته تابع ابن أخيه « الواثق » تنفيذ وصية أبيه ، حتى كاد هذا الجدل الفقهى أن ينتهى إلى فتنة سياسية ، وكان من ضحايا حكم « الواثق » استشهاد الفقيه أحمد بن نصر الخزاعى ، الذى صُلِب بسامراء ، والفقيه المصرى أبو يعقوب البيوطى رفيق الشافعى الذى استقدم من القاهرة إلى بغداد لامتحانه ومات فى سجنه ، ولم ترتفع المحنة حتى تولى « المتوكل » الخلافة (البلتاجى) .

بالقرآن قديم أو غير مخلوق ، فضلاً عن أن يقول : إن صوتى به قديم أو غير مخلوق ، بل كانوا يقولون بما دلّ عليه الكتاب والسُنّة من أن هذا القرآن كلام الله ، والناس يقرأونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم ، وما بين اللوحين كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق .

● قراءتنا للقرآن وأصواتنا بها مخلوقة ، والقرآن غير مخلوق :

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو » ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (١) ، والمداد الذى يُكتب به القرآن مخلوق ، والصوت الذى يُقرأ به هو صوت العبد ، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة ، فالقرآن الذى يقرؤه المسلمون كلام البارئ ، والصوت الذى يقرأ به العبد صوت القارئ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (٢) ، وقال النبى ﷺ : « زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم » ، فبيَّن أن الأصوات التى يُقرأ بها القرآن أصواتنا ، والقرآن كلام الله ، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السُنّة : يُحَسِّنه الإنسان بصوته ، كما قال أبو موسى الأشعرى للنبى ﷺ : لو علمتُ أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيراً . فكان ما قاله أحمد وغيره من أئمة السُنّة من أن الصوت صوت العبد موافقاً للكتاب والسُنّة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ

(١) البروج : ٢١ – ٢٢ (٢) التوبة : ٦ (٣) لقمان : ١٩
(٤) الحجرات : ٢ (٥) الحجرات : ٣

مداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (١) ، ففرّق سبحانه بين المداد الذى تُكتب به كلماته وبين كلماته ، فالبحر وغيره من المداد الذى يكتب به الكلمات مخلوق ، وكلمات الله غير مخلوقة . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (٢) ، فالأبحر إذا قُدِّرت مداداً تنفد وكلمات الله لا تنفد ، ولهذا قال أئمة السُنّة : لم يزل الله متكلماً كيف شاء وبما شاء ، كما ذُكِرَت الآثار بهذه المعانى عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما .

- **إخبار الله تعالى عن نفسه بالنداء والحديث فى ندائه بصوت :**

هذا ، وقد أخبر سبحانه عن نفسه بالنداء فى أكثر من عشرة مواضع ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِى الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ المُرْسَلِينَ ﴾ (٥) ، وذكر سبحانه نداءه لموسى عليه السلام فى سورة طه ومريم والطس الثلاث وفى سورة والنازعات ، وأخبر أنه ناداه فى وقت بعينه فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِى البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوىً ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ (٨) ،

---

(١) الكهف : ١٠٩ — (٢) لقمان : ٢٧ — (٣) الأعراف : ٢٢

(٤) القصص : ٦٢ — (٥) القصص : ٦٥ — (٦) القصص : ٣٠

(٧) النازعات : ١٥ - ١٦ — (٨) القصص : ٤٦

واستفاضت الآثار عن النبى ﷺ والصحابه والتابعين ومَن بعدهم من أئمة السُنّة أنه سبحانه ينادى بصوت ، نادى موسى وينادى عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحى بصوت ، ولم يُنقل عن أحد من السَلَف أنه قال إن اللّه يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ، ولا أنه أنكر أن يتكلم اللّه بصوت أو بحرف ، كما لم يقل أحد منهم إن الصوت الذى سمعه موسى قديم ، ولا أن ذلك النداء قديم ، ولا قال أحد منهم إن هذه الأصوات المسموعة من القرّاء هى الصوت الذى تكلّم اللّه به ، بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذى يتكلم اللّه به وبين أصوات العباد .

وكان أئمة السُنّة يعدون مَن أنكر تكلمه بصوت من الجهمية كما قال الإمام أحمد لما سُئِلَ عمن قال إنه اللّه لا يتكلم بصوت ، فقال : هؤلاء جهمية ، إنما يدورون على التعطيل . وذكر بعض الآثار المروية فى أنه سبحانه يتكلم بصوت . وقد ذكر مَن صنَّف فى السُنّة من ذلك قطعة كما .... [1] من ذلك قطعة ، وعلى ذلك ترجم عليه البخارى فى صحيحه قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ [2] ، وقد ذكر البخارى فى كتاب « خلق الأفعال » مما يبين به الفرق بين الصوتين آثاراً متعددة . وكانت محنة البخارى مع أصحابه محمد ابن يحيى الذهلى وغيره بعد موت أحمد بسنين ، ولم يتكلم أحمد فى البخارى إلا بالثناء عليه ، ومَن نقل عن أحمد أنه تكلم فى البخارى بسوء فقد افترى عليه .

• تكلمه تعالى بصوت ، وتكفير الشافعى وغيره مَن يقول : « القرآن مخلوق » :

وقد ذكر الشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخى فى كتابه الذى سماه « الفصول فى الأصول » قال : سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول :

---

(١) بياض بالأصل .　　(٢) سبأ : ٢٣

سمعتُ أبا حامد الإسفرايينى يقول : مذهبى ومذهب الشافعى وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ومَن قال مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل مسموعاً من الله ، والنبى ﷺ سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ ، وهو الذى نتلوه نحن بألسنتنا وفيما بين الدفتين وما فى صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومَن قال : « مخلوق » فهو كافر ، عليه لعائن الله والناس أجمعين .

وقد كان طائفة من أهل الحديث والمنتسبين إلى السُنَّة تنازعوا فى اللَّفظ بالقرآن هل يقال إنه مخلوق ، ولما حدث الكلام فى ذلك أنكرت أئمة السُنَّة كأحمد بن حنبل وغيره أن يُقال : لفظى بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، وقالوا : مَن قال إنه مخلوق فهو جهمى ، ومَن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع . وأما صوت العبد فلم يتنازعوا أنه مخلوق ، فإن المبلِّغ لكلام غيره بلفظ صاحب الكلام إنما بلَّغ غيره ، كما يقال : روى الحديث بلفظه ، وإنما يبلغه بصوت نفسه لا بصوت صاحب الكلام .

• القراءة بالمعنى المصدرى وبالحاصل بالمصدر - أى المقروء :

واللَّفظ فى الأصل مصدر : لَفَظَ يلفظ لفظاً ، وكذلك التلاوة والقراءة مصدران ، لكن شاع استعمال ذلك فى نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو (١) وهو المراد باللَّفظ فى إطلاقهم . فإذا قيل : لفظى - أو اللَّفظ بالقرآن مخلوق ، أشعر أن هذا القرآن الذى يقرؤه ويلفظ به مخلوق ، وإذا قيل : لفظى غير مخلوق ، أشعر أن شيئاً مما يُضاف إليه غير مخلوق ، وصوته وحركته مخلوقان ، لكن كلام الله الذى يقرؤه غير مخلوق ، والتلاوة قد يُراد بها نفس الكلام الذى يُتلَى ،

---

(١) يعبِّر عن الأول بالمعنى المصدرى ، وعن الثانى بالحاصل بالمصدر .

وقد يُراد بها نفس حركة العبد ، وقد يُراد بها مجموعهما . فإذا أريد بها الكلام نفسه الذى يُتلى فالتلاوة هى المتلو . وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هى المتلو ، وإذا أريد بها المجموع فهى متناولة للفعل والكلام فلا يُطلق عليها إنها المتلو ولا إنها غيره .

ولم يكن أحد من السَلَف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات البارى تعالى ، بل الذى كانوا عليه أن القرآن كلام الله تكلّم الله به بحروفه ومعانيه ليس شيء منه كلاماً لغيره ، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما ، بل كَفَّرَ اللهُ مَن جعله قول البَشر ، مع أنه سبحانه أضافه تارة إلى رسول من البَشر وتارة إلى رسول من الملائكة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] . فالرسول هنا محمد ﷺ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [2] ، فالرسول هنا جبريل ، وأضافه سبحانه إلى كل منهما باسم رسول لأن ذلك يدل على أنه مبلّغ له عن غيره وأنه رسول فيه لم يُحدث هو شيئاً منه ، إذ لو كان قد أحدث منه شيئاً لم يكن رسولاً فيما أحدثه بل كان منشئاً له من تلقاء نفسه ، وهو سبحانه يضيفه إلى رسول من الملائكة تارة ومن البَشر تارة ، فلو كانت الإضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران ، فإن إنشاء أحدهما له يناقض إنشاء الآخر له ، وقد كَفَّرَ اللهُ تعالى مَن قال إنه قول البَشر ، فمَن قال إن القرآن أو شيئاً منه قول بَشر أو ملك

---

(1) الحاقة : ٤٠ - ٤٣

(2) التكوير : ١٩ - ٢٧

فقد كذب ، ومَن قال إنه قول رسول من البَشر ومن الملائكة بلّغه عن مرسله ليس قول ....[1] .

• جهل المتكلمين بأقوال السَلَف فهم لا يذكرونها فى كتبهم :

ولم يقل أحد من السَلَف أن جبريل أحدث ألفاظه ولا محمداً ﷺ ، ولا أن الله تعالى خلقها فى الهواء أو غيره من المخلوقات ، ولا أن جبريل أخذها من اللّوح المحفوظ ، بل هذه الأقوال هى من أقوال بعض المتأخرين ، وقد بُسطَ الكلام فى غير هذا الموضع على تنازع المبتدعين الذين اختلفوا فى الكتاب وبَيَّنَ فساد أقوالهم ، وأن القول السديد هو قول السَلَف وهو الذى يدل عليه النقل الصحيح والعقل الصريح ، وإن كان عامة هؤلاء المختلفين فى الكتاب لم يعرفوا القول السديد - قول السَلَف - بل ولا سمعوه ولا وجدوه فى كتاب من الكتب التى يتداولونها لأنهم لا يتداولون الآثار السَلَفية ولا معانى الكتاب والسُنَّة إلا بتحريف بعض المُحَرِّفين لها ، ولهذا إنما يذكر أحدهم أقوالاً مبتدعة إما قولين وإما ثلاثة وإما أربعة وإما خمسة ، والقول الذى كان عليه السَلَف ودلّ عليه الكتاب والسُنَّة لا يذكره لأنه لا يعرفه ، ولهذا نجد الفاضل من هؤلاء حائراً مقراً بالحيرة على نفسه وعلى مَن سبقه من هؤلاء المختلفين لأنه لم يجد فيما قالوه قولاً صحيحاً .

وكان أول مَن ابتدع الأقوال الجهمية [2] المحضة النُفاة الذين لا يُثبتون الأسماء والصفات ، فكانوا يقولون أولاً : إن الله تعالى لا يتكلم ، بل خلق

---

(١) بياض بالأصل والمعنى يقتضى أن يكون المحذوف : « ليس قولاً أنشأه من عنده » فقد صدق .

(٢) أتباع جهم بن صفوان المتوفى عام ١٢٨ هـ ، ويقولون : بأن الانسان مسيَّر ، وينفون الصفات (البلتاجى) .

كلاماً فى غيره وجعل غيره يُعبِّر عنه ، وأن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ [(١)] ، وقول النبى ﷺ : « إنَّ اللّه ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة إذا بقى ثُلث اللَّيل ، فيقول : مَن يدعونى فأستجيب له ؟ مَن يسألنى فأعطيه ؟ مَن يستغفرنى فأغفر له ؟ » معناه أن ملكاً يقول ذلك عنه ، كما يقال : نادى السلطان : أى أمر منادياً نادى عنه ، فإذا تُلِيَ عليهم ما أخبر اللّه تعالى به عن نفسه من أنه يقول ويتكلم . قالوا هذا مجاز ، كقول العربى : « امتلأ الحوض وقال قطنى » وقالت [(٢)] اتساع بطنه ... ونحو ذلك .

• بطلان تأويل نداء اللّه بنداء ملك بأمره :

فلما عرف السَلَف حقيقته وأنه مضاه لقول المتفلسفة المعطلة الذين يقولون : إنَّ اللّه تعالى لم يتكلم ، وإنما أضافت الرسل إليه الكلام بلسان الحال ، كَفَّروهم وبيَّنوا ضلالهم ، ومما قالوا لهم : إنَّ المنادى عن غيره كمنادى السلطان يقول : أمر السلطان بكذا ، خرج مرسومه بكذا ، لا يقول : إنى آمركم بكذا وأنهاكم عن كذا ، واللّه تعالى يقول فى تكليمه لموسى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [(٣)] ، ويقول تعالى إذا نزل ثُلث اللَّيل الغابر : « مَن يدعونى فأستجيب له ؟ مَن يسألنى فأعطيه ؟ مَن يستغفرنى فأغفر له ؟ » ، وإذا كان القائل مَلَكاً قال - كما فى الحديث الذى فى الصحيحين : « إذا أحب اللّه العبد نادى فى السماء : يا جبريل إنى أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل وينادى فى السماء : إن اللّه يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض » ، فقال جبريل فى ندائه عن اللّه

---

(١) الشعراء : ١٠ .

(٢) كذا فى الأصل والظاهر أنه سقط منه شيء .

(٣) طه : ١٤

تعالى : « إنَّ اللّه يحب فلاناً فأحبوه » ، وفى نداء الرب يقول : « مَن يدعونى فأستجيب له ؟ مَن يسألنى فأعطيه ؟ مَن يستغفرنى فأغفر له ؟ » فإن قيل : فقد رُوِىَ أنه يأمر منادياً فينادى ، قيل : هذا ليس فى الصحيح ، فإن صَحَّ أمكن الجمع بين الخبرين بأن ينادى هو ويأمر منادياً ينادى . أما أن يعارَض بهذا النقل النقل الصحيح المستفيض الذى اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول مع أنه صريح فى أن اللّه تعالى هو الذى يقول : « مَن يدعونى فأستجيب له ؟ مَن يسألنى فأعطيه ؟ مَن يستغفرنى فأغفر له ؟ » فلا يجوز .

• مذهب الجهمية والمعتزلة والكلابية فى كلام اللّه تعالى :

وكذلك جهم كان ينكر أسماء اللّه تعالى فلا يسميه شيئاً ولا حياً ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز . قال : لأنه إذا سُمِّىَ باسم تسمى به المخلوق كان تشبيهاً ، وكان جهم مُجَبِّراً يقول : إنَّ العبد لا يفعل شيئاً ، فلهذا نُقِلَ عنه أنه سَمَّى اللّه قادراً لأن العبد عنده ليس بقادر .

ثم إنَّ المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله فى القَدَر والوعيد دخلوا فى مذهب جهم ، فأثبتوا أسماء اللّه تعالى ولم يثبتوا صفاته ، وقالوا : نقول إن اللّه متكلم حقيقة ، وقد يذكرون إجماع المسلمين على أن اللّه متكلم حقيقة ، لئلا يُضاف إليهم أنهم يقولون إنَّه غير متكلم ، لكن معنى كونه سبحانه متكلماً عندهم أنه خلق الكلام فى غيره ، فمذهبهم ومذهب الجهمية فى المعنى سواء ، لكن هؤلاء يقولون هو متكلم حقيقة ، وأولئك ينفون أن يكون متكلماً حقيقة . وحقيقة قول الطائفتين أنه غير متكلم ، فإنه لا يُعقل متكلم إلاَّ مَن قام به الكلام ، ولا مريد إلاَّ مَن قامت به الإرادة ، ولا محب ولا راض ولا مبغض ولا رحيم إلاَّ مَن قام به الإرادة والمحبه والرضا والبُغض والرحمة ، وقد وافقهم على ذلك كثير ممن انتسب فى الفقه إلى أبى حنيفة من المعتزلة . وغيرهم من

أئمة المسلمين ليس فيهم مَن يقول بقول المعتزلة لا فى نفى الصفات ولا فى القَدَر ولا المنزلة بين المنزلتين ولا إنفاذ الوعيد .

ثم تنازع المعتزلة والكلابية [١] فى حقيقة المتكلم . فقالت المعتزله : المتكلم مَن فعل الكلام ولو أنه أحدثه فى غيره ، ليقولوا إنّ اللّه يخلق الكلام فى غيره وهو متكلم به . وقالت الكلابية : المتكلم مَن قام به الكلام وإن لم يكن متكلماً بمشيئته وقُدرته ، ولا فعل فعلاً أصلاً ، بل جعلوا المتكلم بمنزلة الحى الذى قامت به الحياة ، وإن لم تكن حياته بمشيئته ولا قُدرته ولاحاصلة بفعل من أفعاله .

● الخلاف بين السَلَف وفرق المتكلمين فى صفات اللّه تعالى :

وأما السَلَف وأتباعهم وجمهور العقلاء ، فالمتكلم المعروف عندهم مَن قام به الكلام وتكلم بمشيئته وقُدرته ، لا يُعقل متكلم لم يقم به الكلام ، ولا يُعقل متكلم بغير مشيئته وقُدرته ، فكان كل من تينك الطائفتين المبتدعتين أخذت بعض وصف المتكلم : المعتزلة أخذوا أنه فاعل ، والكلابية أخذوا أنه محل الكلام ، ثم زعمت المعتزلة أنه يكون فاعلاً للكلام فى غيره ، وزعموا هم ومَن وافقهم من أتباع الكلابية كأبى الحسن [٢] وغيره أن الفاعل لا يقوم به الفعل ، وكان هذا مما أنكره السَلَف وجمهور العقلاء وقالوا : لا يكون الفاعل إلا مَن قام به الفعل ، وأنه يفرق بين الفاعل والفعل والمفعول ، وذكر البخارى فى كتاب « خلق أفعال العباد » إجماع العلماء على ذلك . والذين قالوا : إن الفاعل

---

(١) الكلأبية : أصحاب عبد اللّه بن سعيد الكلابى ، وهم من الصفاتية الذين يثبتون للّه تعالى صفات أزلية من العلم والقُدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة ، ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً ، وكذلك يثبتون صفات جبرية مثل اليدين والرجلين ، ولا يؤولون ذلك إلا أنهم يقولون بتسميتها صفات جبرية (البلتاجى) .

(٢) أبو الحسن الأشعرى .

لا يقوم به الفعل ، وقالوا مع ذلك : إنّ اللّه فاعل أفعال العباد كأبى الحسن [1] وغيره أن يكون الرب [2] هو الفاعل لفعل العبد وأن العبد لم يفعل شيئاً وأن جميع ما يخلقه العبد فعل له ، وهم يصفونه بالصفات الفعلية المنفصلة عنه ويقسمون صفاته إلى صفات ذات وصفات أفعال ، مع أن الأفعال عندهم هى المفعولات المنفصلة عنه ، فلزمهم أن يوصف بما خلقه من الظلم والقبائح مع قولهم إنه لا يوصف بما خلقه من الكلام وغيره ، فكان هذا تناقضاً منهم تسلطت به عليهم المعتزلة . ولما قرروا ما هو من أصول أهل السنّة وهو أن المعنى إذا قام بمحل اشتق له منه اسم ولم يشتق لغيره منه اسم كاسم المتكلم ، نقض عليهم المعتزلة ذلك باسم الخالق والعادل فلم يجيبوا عن النقض بجواب سديد .

وأما السلف والأئمة فأصلهم مطرد . ومما احتجوا به على أن القرآن غير مخلوق ما احتج به الإمام أحمد وغيره من قول النبى ﷺ : « أعوذُ بكلمات اللّه التامات » قالوا : والمخلوق لا يُستعاذ به ، فعورضوا بقوله : « أعوذُ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك » فطرد السلف والأئمة أصلهم وقالوا : معافاته فعله القائم به ، وأما العافية الموجودة فى الناس فهى مفعوله .

• بيان كل فرقة من المبتدعين فساد مذهب الأخرى والحق عند غيرهم

وكذلك قالوا : إنّ اللّه خالق أفعال العباد ، فأفعال العباد القائمة بهم مفعولة له لا نفس فعله ، وهى نفس فعل العبد ، وكان حقيقة قول أولئك نفى فعل الرب

(١) أبو الحسن الأشعرى .

(٢) كذا فى الأصل ولعله سقط منه شىء « كأنكروا » ، فإنهم يقولون : إن العبد هو الفاعل لفعله من أكل وشرب ونوم ، ولو كان اللّه هو الفاعل لذلك لوجب أن يقال : إنه هو الآكل الشارب النائم لأن الفاعل مَن قام به الفعل .

ونفى فعل العبد . فتسلطت عليهم المعتزلة فى مسألة الكلام والقَدَر تسلطاً بيَّنوا به تناقضهم كما بيَّنوا هم تناقص المعتزلة .

وهذا أعظم ما يُستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالهم باطلة ، فإنه يُستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الأخرى ، فيعرف الطالب فساد تلك الأقوال ، ويكون ذلك داعياً له إلى طلب الحق ، ولا تجد الحق إلا موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ ، ولا تجد ما جاء به الرسول إلا موافقاً لصريح المعقول ، فيكون ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وممن له قلب يعقل به وأُذن يسمع بها ، بخلاف الذين قالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [1] .

وقد وافق الكلأبية على قولهم كثير من أهل الحديث والتصوف ومن أهل الفقه المنتسبين إلى الأئمة الأربعة ، وليس من الأئمة الأربعة وأمثالهم من أئمة المسلمين مَن يقول بقولهم .

• استدلال المتكلمين باصطلاحات باطلة جعلوها مسلَّمة :

وحدث مع الكلأبية ونحوهم طوائف أخرى من الكرامية [2] وغير الكرامية من أهل الفقه والحديث والكلام ، فقالوا : إنه سبحانه متكلم بمشيئته وقُدرته كلاماً قائماً بذاته ، وهو يتكلم بحروف وأصوات بمشيئته وقُدرته ، ليتخلصوا بذلك من بدعتى المعتزلة والكلأبية . لكن قالوا : إنه لم يكن فى الأول أن يتكلم بل صار الكلام ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً عليه ، من غير حدوث سبب أوجب إمكان

---

(١) الملك : ١٠ .

(٢) الكرامية : بدعة إسلامية قديمة قالت بالتجسيم ، وتُنسب إلى محمد بن كرام المتوفى عام ٢٥٦ هـ ، وانظر هامش ص ١٣ من هذا الجزء (البلتاجى) .

الكلام وقُدرته عليه ، وهذا القول مما وافق الكرَّامية عليه كثير من أهل الكلام والفقه والحديث ، لكن ليس من الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة المسلمين مَن نُقِلَ عنه مثل قولهم . وهذا مما شاركوا فيه الجهمية والمعتزلة ، فإن هؤلاء كلهم يقولون : إنه لم يكن الكلام ممكناً له فى الأزل ثم صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً عليه من غير حدوث سبب أوجب إمكانه ، لكن الجهمية والمعتزلة يقولون : إنه خلق كلاماً فى غيره من غير أن يقوم به كلام ، لأنه لو قام به كلام بمشيئته وقُدرته لقامت به الحوادث ، قالوا : ولا تقوم به الحوداث . قالت الجهمية والمعتزلة : لأن الحوادث هى من جملة الصفات التى يسمونها الأعراض . وعندهم لا يقوم شىء من الصفات . قالوا : لأن الصفات أعراض ، والعرض لا يقوم إلا بجسم ، وليس هو بجسم لأن الجسم لا يخلو من الحوادث ، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، وقالت الكلاَّبية : بل تقوم به الصفات ولا تقوم به الحوادث ، ونحن لا نسمى الصفات أعراضاً لأن العرض عندنا لا يبقى زمانين ، وصفات الله تعالى باقية . وقالوا : وأما الحوادث فلو قامت به لم يخل منها لأن القابل للشىء لا يخلو منه ومن ضده ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

فقال الجمهور المنازعون للطائفتين : أما قول أولئك إنه لا تقوم به الصفات لأنها أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس بجسم ، فتسمية ما يقوم بغيره عرضاً اصطلاح حادث ، وكذلك تسمية ما يُشار إليه جسماً اصطلاح حادث أيضاً . والجسم فى لغة العرب هو البدن وهو الجسد كما قال غير واحد من أهل اللُّغة منهم الأصمعى وأبو عمرو . فلفظ الجسم يشبه لفظ الجسد وهو الغليظ الكثيف . والعرب تقول : هذا جسيم ، وهذا أجسم من هذا - أى أغلظ منه . قال تعالى: ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى العِلْمِ وَالجِسْمِ ﴾ (١) ، وقال تعالى :

(١) البقرة : ٢٤٧

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ (١) ، ثم قد يُراد بالجسم نفس الغلظ والكثافة ، ويُراد به الغليظ الكثيف .

وكذلك النُظّار يريدون بلفظ الجسم تارة المقدار وقد يسمونه الجسم التعليمى ، وتارة يريدون به الشىء المُقدَّر وهو الجسمى الطبيعى ، والمقدار المجرَّد عن المقدَّر كالعدد المجرَّد عن المعدود ، وذلك لا يوجد إلا فى الأذهان دون الأعيان . وكذلك السطح والخط والنقطة المجرَّدة عن المحل الذى تقوم به لا يوجد إلا فى الذهن . قالوا : وإذا كان هذا معنى الجسم بلغة العرب فهو أخص من المشار إليه ، فإن الروح القائمة بنفسها لا يسمونها جسماً ، بل يقولون : خرجت روحه من جسمه ، ويقولون : إنه جسم وروح ولا يسمون الروح جسماً ، ولا النَفَس الخارج من الإنسان جسماً ، لكن أهل الكلام اصطلحوا على أنَّ كل ما يشار إليه يسمى جسماً ، كما اصطلحوا على أنَّ كل ما يقوم بنفسه يسمى جوهراً ، ثم تنازعوا فى أن كل ما يُشار إليه هل هو مركَّب من الجواهر الفردة ، أو من المادة والصورة ، أو ليس مركَّباً لا من هذا ولا من هذا ، على أقوال ثلاثة قد بُسِطَت فى غير هذا الموضع ، ولهذا كان كثير منهم يقولون : الجسم عندنا هو القائم بنفسه أو هو الموجود لا المركَّب .

• نقض أدلة المتكلمين المبنية على اصطلاحاتهم فى الجسم والجوهر والعَرَض ... إلخ :

قال أهل العلم والسُنَّة : فإذا قالت الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات أنَّ الصفات لا تقوم إلا بجسم والله تعالى ليس بجسم ، قيل لهم : إن أردتم بالجسم ما هو مركَّب من جواهر فردة أو ما هو مركَّب من المادة والصورة ، لم نُسلِّم لكم المقدمة الأولى وهى قولكم : إن الصفات لا تقوم إلا بما هو كذلك ، قيل لكم :

---

(١) المنافقون : ٤

إنَّ الرب تعالى قائم بنفسه والعباد يرفعون أيديهم إليه فى الدعاء ويقصدونه بقلوبهم وهو العليّ الأعلا سبحانه ، ويراه المؤمنون بأبصارهم يوم القيامة عياناً كما يرون القمر ليلة البدر ، فإن قلتم : إنَّ ما هو كذلك فهو جسم وهو محدَث - كان هذا بدعة مخالفة للُغة والشرع والعقل ، وإن قلتم : نحن نسمى ما هو كذلك جسماً ونقول إنه مركب - قيل : تسميتكم التى ابتدعتموها هى من الأسماء التى ما أنزل الله بها من سلطان ، ومَن عمد إلى المعانى المعلومة بالشرع والعقل وسماها بأسماء منكرة لينفر الناس عنها قيل له : النزاع فى المعانى لا فى الألفاظ ولو كانت الألفاظ موافقة للغة ، فكيف إذا كانت من ابتداعهم ، ومعلوم أن المعانى التى يُعلم ثبوتها بالشرع والعقل لا تُدفع بمثل هذا النزاع اللّفظى الباطل . وأما قولهم : إنَّ كل ما كان يقوم به الصفات وتُرفع الأيدى إليه ويمكن أن يراه الناس بأبصارهم فإنه لا بد أن يكون مركّباً من الجواهر المفردة أو من المادة والصورة ، فهذا ممنوع بل هو باطل عند جمهور العقلاء من النُظّار والفقهاء وغيرهم ، كما قد بُسِطَ فى موضعه .

• بطلان قولهم : « العرض لا يبقى زمانين وما يقبل الحوادث حادث » :

قال الجمهور : وأما تفريق الكلابية بين المعانى التى لا تتعلق بمشيئته وقُدرته ، والمعانى التى تتعلق بمشيئته وقُدرته التى تسمى الحوادث - ومنهم مَن يسمى الصفات أعراضاً لأن العَرَض لا يبقى زمانين - فيقال : قول القائل إن العرض الذى هو السواد والبياض والطول والقصر ونحو ذلك لا يبقى زمانين - قول محدث فى الإسلام ، لم يقله أحد من السَلَف والأئمة ، وهو قول مخالف لما عليه جماهير العقلاء من جميع الطوائف ، بل من الناس مَن يقول إنه معلوم الفساد بالاضطرار ، كما قد بُسِطَ فى موضع آخر .

وأما تسمية المسمى للصفات أعراضاً فهذا أمر اصطلاحى لمن قاله من أهل الكلام ليس هو عُرف أهل اللُغة ولا عُرف سائر أهل العلم ، والحقائق المعلومة بالسمع والعقل لا يؤثر فيها اختلاف الاصطلاحات ، بل يُعد هذا من النزاعات اللَفظية ، والنزاعات اللَفظية أصوبها ما وافق لغة القرآن والرسول والسَلَف ، فما نطق به الرسول والصحابة جاز النُطق به باتفاق المسلمين ، وما لم ينطقوا به ففيه نزاع وتفصيل ليس هذا موضعه .

وأما قول الكلأبية : ما يقبل الحوادث لا يخلو منها وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، فقد نازعهم جمهور العقلاء فى كِلاَ المقدمتين حتى أصحابهم المتأخرون نازعوهم فى ذلك ، واعترفوا ببطلان الأدلة العقلية التى ذكرها سَلَفهم على نفي حلول الحوادث به ، واعترف بذلك المتأخرون من أئمة الأشعرية والشيعة والمعتزلة وغيرهم كما قد بُسِطَ فى غير هذا الموضع .

• نظريات مذاهب المتكلمين المتعارضة فى القرآن :

وحدثت طائفة أخرى من السالمية [١] وغيرهم ممن هو من أهل الكلام والفقه والحديث والتصوف ومنهم كثير ممن هو ينتسب إلى مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وكثر هذا فى بعض المتأخرين المنتسبين إلى أحمد بن حنبل فقالوا بقول المعتزلة وبقول الكلأبية : وافقوا هؤلاء فى قولهم أنه قديم ، ووافقوا أولئك فى قولهم أنه حروف وأصوات ، وأحدثوا قولاً مبتدَعاً كما أحدث غيرهم فقالوا : القرآن قديم وهو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لنفس الله تعالى أزلاً وأبداً . واحتجوا على أنه قديم بحجج الكلأبية ، وعلى أنه حروف وأصوات بحجج المعتزلة . فلما قيل : لهم الحروف مسبوقة بعضها ببعض فالباء قبل

(١) السالمية : مدرسة صوفية أسسها سهل التسترى فى البصرة ، سميت السالمية نسبة إلى عبد الله محمد بن سالم ، تذهب إلى أن فى الله مشيئة غير مخلوقة وإرادة تعمل فى الخلائق عملاً منزهاً عن الخطأ (البلتاجى) .

السين ، والشين قبل الميم ، والقديم لا يُسبق بغيره ، والصوت لا يُتصور بقاؤه فضلاً عن قِدمه ، قالوا : الكلام له وجود وماهية ، كقول مَن فرّق بين الوجود والماهية من المعتزلة وغيرهم . قالوا : والكلام له ترتيب فى وجوده ، وترتيب ماهية الباء للسين بالزمان هى فى وجوده وهى مقارنة لها فى ماهيتها لم تتقدم عليها بالزمان وإن كانت متقدمة بالمرتبة كتقدم بعض الحروف المكتوبة على بعض . فإن الكاتب قد يكتب آخر المصحف قبل أوله ، ومع هذا فإذا كتبه كان أوله متقدماً بالمرتبة على آخره .

فقال لهم جمهور العقلاء : هذا مما يُعلم فساده بالاضطرار ، فإن الصوت لا يُتصور بقاؤه ، ودعوى وجود ماهية غير الوجود فى الخارج دعوى فاسدة كما قد بُسِطَ فى موضع آخر . والترتيب الذى فى المصحف هو ترتيب للحروف المدادية والمِداد أجسام ، فهو كترتيب الدار والإنسان ، وهذا أمر يوجد الجزء الأول منه مع الثانى بخلاف الصوت فإنه لا يوجد الجزء الثانى منه حتى يعدم الأول كالحركة ، فقياس هذا بهذا قياس باطل ، ومن هؤلاء مُن يطلق لفظ القديم ولا يتصور معناه ، ومنهم مَن يقول : يعنى بالقديم أنه بدأ من الله وأنه غير مخلوق ، وهذا المعنى صحيح لكن الذين نازعوا هل هو قديم أو قديم [1] لم يعنوا هذا المعنى ، فمَن قال لهم إنه قديم وأراد هذا المعنى قد أراد معنى صحيحاً لكنه جاهل بمقاصد الناس مضل لمن خاطبه بهذا الكلام مبتدع فى الشرع واللّغة .

ثم كثير من هؤلاء يقولون : إنَّ الحروف القديمة والأصوات ليست هى الأصوات

---

(١) أى أنه إذا كان قديماً بمعنى القدم - بالمعنى الفلسفى - فهذا صحيح لأنه يقصد به أنه ليس مخلوقاً أو محدثاً ، أما إذا كان قديماً بالمعنى العام - أى مخلوقاً - فهذا غير صحيح ، لأنه يقصد به أنه قديم بغير ذات الله ، فهذا هو الخطأ (البلتاجى) .

المسموعة من القرّاء ولا المِداد الذي في المصحف ، ومنهم مَن يقول : بل الأصوات المسموعة من القُرّاء هو الصوت القديم ، ومنهم مَن يقول : بل يسمع من القارئ شيئان : الصوت القديم وهو ما لا بد منه في وجود الكلام ، والصوت المحدَث وهو ما زاد على ذلك ، وهؤلاء يقولون : المِداد الذي في المصحف مخلوق لكن الحروف القديمة ليست هي المِداد بل الأشكال والمقادير التي تظهر بالمِداد ، وقد تُنقش في حجر وقد تُخرق في ورق ، ومنهم مَن يمنع أن يقال في المِداد إنه قديم أو مخلوق ، وقد يقول : لا أمنع عن ذلك بل أعلم انه مخلوق لكن أسدُّ باب الخوض في هذا ، وهو مع هذا يهجر مَن يتكلم بالحق ومَن يُبيِّن الصواب الموافق للكتاب والسُنَّة وإجماع سَلَف الأمة مع موافقته لصريح المعقول ، ومع دفعه للشناعات التي يُشنِّع بها بعضهم على بعض ، وخوض الناس وتنازعهم في هذا الباب كثير قد بسطناه في مواضع ، وإنما المقصود هنا ذكر قول مختصر جامع يُبيِّن الأقوال السديدة التي دلَّ عليها الكتاب والسُنَّة وكان عليها سَلَف الأمة في مسألة الكلام ، التي حيَّرت عقول الآنام ، والله تعالى أعلم .

* * *